القصص

صور من هوميروس

٧ - حروب طروادة

الفدائي الأول

للأستاذ دريني خشبة

رَوِيَت الآلهة إذن وشفت ما في أنفسها من ظمأ إلى دماء الضحايا، وإن لم تغفر لديانا البارة، ديانا ربة القمر، انقاذها للفتاة التعسة إفجنيا، وهي على قاب قوسين من خناجر الكهنة والربّيين القساة

لقد أبت الآلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزي المتدفق في عروق عُبَّادها المخلصين من أبناء هيلاس؛ فلما ذهب كالخاس، عرّاف الحملة، يستوحي أربابه في معبد دلفي هل لها مطالب آخر في ضحية أو قربان بعد تقدمة إفجنيا، ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم مقصورة الإله الأكبر يقول: « لا .... ولكن أن تقلعوا اليوم .... فإذا كنتم عند شطئان طروادة، فإن لنا دم الفارس الأول الذي تطأ قدماه رمال الشاطئ ... سيقتل، وسيكون لنا عوض من إفجنيا! »

***

ودعا إليه أبناءه [1] ايولوس رب الرياح الست فأمرهم أن يكونوا جميعاً في خدمة الأسطول الهيلاني، حتى يصل إلى طروادة .... « وأنا أعرفك يا بوريس حين تعصف وتزف، وتصبح ويلا على الجواري أي ويل؛ وأنت يا كوروس، إياك وهذه البوارح التي تصلي بها سفائن القوم، وأنت يا أكويلو؛ وأنت أيضاً يا نيتوس، إن ريحك مُجْفِل، وهبّتك هوجاء، ولفحاتك حرور، وأنفاسك سموم، فإن لم ترفق بالقوم، وتجر بين أيديهم رخاء، فلأسجننك في الكهف الأسود حتى حين، أما أنت يا ولدي إيوروس، فاحذر أن تصيب الناس سوافيك أو يسوء فالهم فيك؛ بل كن لهم خادماً أميناً، تدفع ركبهم في رفق، وتملأ شراعهم في أناة .... ويسرني أن تسمعوا لنصيحة زفيروس، فهو أليَنكم عريكة، وأكثركم صفاء ... ألقوا إليه بزمامكم، ولا تختلفوا في أمر يلقيه إليكم، أصلح لكم زيوس أحوالكم .... »

وهبت الريح فخفقت أفئدة العسكر، وابتهجت أنفس القادة، واجتمع الميرميدون حول أخيل يترضونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشئوم، ثم انتشرت الشراع ورُفعت المراسي، وهمت الفلك فاحتواها البحر اللجيّ، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء في خضرتين، ومن دروع الجند وزبد الموج في لبدتين، ومن قلوب الشعب الهاتف فوق الشاطئ الشاحب في بحر من الآمال!

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره، أسرعن من كل فج يحيين أبطال هيلاس، يُخفين الوشائح السوداء التي ادخرنها لأيام الفصل، إن أيام الفصل كانت ميقاتاً

وتوارت الشمس بالحجاب، وبزغ القمر ينضض حواشي الماء، وحملقت النجوم ترى إلى هذا الأسطول اللجب يمخر عباباً من خلفه عباب، ويطوي لجة من ورائها لجة، واللاحون دائبون ماينون، مرسلين في اللانهاية ألحانهم، مرددة الرياح أغانيهم وأنغامهم؛ والقادة متكبكبون حول القائد الأعلى، حول أجاممنون، يدرسون تلك الخطة، وينقدون هذه الفكرة، ويدبرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز

(١) (Æolus) رب الرياح في الميثولوجيا اليونانية، وقد تزوج من أورورا فأنجبت له أبناءه الستة: ١ — بوريس رب الريح الشمالية، ٢ — كوروس رب الريح الشمالية الغربية ٣ — أكويلو رب الريح الغربية ٤ — نيتوس رب الجنوبية الغربية ٥ — ايوروس رب الريح الشرقية ٦ — ثم زفيروس رب النسيم الجنوبي (عن هـ. ا. جربر ص ١٨٤)

وتنفس صبح اليوم الثالث . . .

وبدت طروادة العاتية فى الأفق الشرقى ، متشحةً بالشفق النحاسى ، الذى صبغ سماءها بالبنفسج الرائع ، تتفجر منه أنهار من الدم ! !

طروادة !

ذات الأبراج المشيدة ، والقباب المنيفة !

إليوم ! ! (١)

بَنِيّةُ (٢) نبتيون إله البحار يوم نفاه زيوس من جنة الأولمب ، وتبعه أبوللو ، فساعده فى بنائها بموسيقاه ! !

يا ما أروعه منظراً أن ترى إلى أبوللو العظيم يعزف على قيثارته المُرِنّة ، فتثب الحجارة وتتراقص ، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا إليوم ! !

طروادة يا ذات الحول !

أين تنام هيلين الساعة سالة حالة ، وأيان تتقلب زَرْبُ ڤينوس ملء ذراعى باريس ! !

ويحك يا منالايوس !

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة ، يتمنى لو تندك على العاشقين الآثمين ! !

« . . . أهو الآن يقبلها ، ويجنى جنا خديها بفمه النهم المشتعل ؟ أم هو يضمها إليه فى عنف ، غير آبه لقلبى الخافق المضطرب ! . . . . . . »

منالايوس ! لا بد مما ليس منه بد . . .

***

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهب أهلها البواسل يستعدون ويستمدون جيرانهم فنصروهم ولبوا نداءهم ، وهرعوا إليهم من كل فج عميق ، وها هى مشارف الجبال وقننها وسفوحها ، ونتوء الشاطىء وصخوره ومناوره ، وها هى ليديا المتيقظة ، وإيوليا المتحفزة ، وإيونيا الرابضة (٣) . . . ها هى البلاد جميعاً تضج بالجند ، وتمج بالسلاح ، وتقعقع بآلة الحرب ، وتدق طبول الوغى ، وتذكى نيران الحراسة فى قمم الجبال ، فلا تغفل عين ولا تهمد همة ، ولا يتسرب إلى النفوس كلال

واقترب الأسطول من الشاطئ . . .

ولكن أحداً لم يجسر أن يجازف بنفسه ، لأن القتيل الأول ، هو أول من يهبط إلى الأرض ، كما أخبرت النبوءة فى معبد دلفى !

ومرت أيام : والهيلانيون فى سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة ولجافها ، ويتحرقون شوقاً إلى لقاء جنودها ، ومنالايوس يحرق الأرَم هو الآخر ؛ ولكن أحداً لا يرضى أن يكون الفدائى الأول . . . « لأنى إذا نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتوماً على ، دون أن أستطيع إلى قتل أحد من هذا الجند من سبيل ، وأنا لم أحضر إلى هنا لأكون قرباناً للآلهة ، ولكن لأزاحم وأنافح وأصول ، فان قتلت بعدها ، فبمشرات وعشرات ، لا كما يقتل كلب البرية غير مفدى . . . »

بروتسيلوس البطل

بيد أن هيلانياً مقاحماً ، هيلانياً واحداً ، من خيرة القادة ومذاويدهم ، عز عليه ألا يكون فى هذا الجيش العرمرم ، على ما جمع من صناديد اليونان ومغاويرهم ، فدائىٌ واحد يتلقى الطعنة الأولى النجلاء ، بثغر باسم ، وقلب لا يجزع ، ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع فى موقف الموت ، ولا تفرق إذا حُمَّ القضاء !

كبر على بروتسيلوس أن يرى قومه بجبن ليست لهم يد فيه ، وكبر عليه أن يقف ألف ألف لو شاءوا دكوا الجبال وزلزلوا السماوات ، من دون هذا البلد لا يتقدمون ولا يتأخرون ، كأنما حربهم هزل ، ونفيرهم مكاء ، وعزمهم تلفيق . أو كأنما ملأوا الدنيا وعيداً لتمتلئ الدنيا عليهم سخرية وضحكا !

كبر على بروتسيلوس ألا يكون هو شهيد هذا الموقف ، فارتخص نفسه ، وهانت عليه الحياة ، وتفهت فى عينيه لذائذ هذا العيش الذليل ؛ ثم استخار أربابه ، واستعاذ بسيد الأولمب ، وما هو إلا أن لمح الشمس بذر قرنها فى خدر الشرق ، فوق جبين طروادة ، حتى قذف بنفسه على الشاطئ ، وأرسل فى الخافقين صيحة الحرب كأنها رعد يعيد به جانب الجبل ، وتهتز من قصفه أسوار المدينة ؛ ثم جال جولة هنا وجولة هناك ، وإذا بالسهام ترشقه من كل مكان ، وإذا هو ملق على أديم الثرى مضرَّجاً بدمه ، معفر الجبين بأول نقع الوغى

---

(١) (Ilium) هى طروادة أيضاً ، ومن هذا الأسم اشتق هوميروس كلمة (الإلياذة) لملحمته الخالدة (Iliad) . وعلى ذكر الألياذة ننبه القارئ إلى أننا — حتى هذا الفصل — لم نصل إليها ؛ وسنشير إلى ذلك فى حينه

(٢) إشارة إلى أن نبتيون هو الذى بناها

(٣) هذه أقاليم قديمة فى غرب الأناضول مما يجاور طروادة براً وبحراً

رحلة من الدار الآخرة

وذاع خبر مقتـله حتى انتهى الى تساليا ، حيث زوجته الفجّعة ، فحزنت عليه حزناً أمض قلبها ، وشعّث جسمها ، وأقض مضجعها ، وصيّر الحياة في عينها حالكاً شديداً وظلاماً قاعاً ! . . . . « برتسيلوس ! أهكذا يا حبيبي ذكرت كل شيء في ميدان المجد والشرف ، ونسيت فيه كل شيء ؟ أهكذا ياحبيبي ذكرت التضحية والأقدام حين تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والأقدام ، فغامرت بنفسك في هذا المعترك المضطرب ، ونسيت أن وراءك قلباً ينعقد رجاؤه بك ، ونفساً ترف من خلف البحار فوقك ، وروحاً لا سكن لها إلا صدرك الحنون ، وعينين لا يشرقان جمال الحياة إلا في وجهك المشرق ، وأذنين ما التذتا إلا الموسيقى المنسكبة من فمك ! ! برتسيلوس ! ما قيمة الحياة بعدك يا حبيبي ! من لزوجتك التاعسة يوم يفخر النساء بأزواجهن ؟ من للمحزونة الكاسفة لاؤوداميا ؟ ما أشق الحياة عليّ بعدك يا رَجُلي ومن كنت كل شيء لي !

لا أسخط عليكم يا أربابي !

بل أنا أصلي لكم ! أصلي لكم بدموعي وقلبي ! أصلي لكم بأحشائي التي تتمزق ، ورأسي الذي يحترق ! أصلي لكم بلساني الذي يجف من شَرَق في حَلْق ، وكان حديث برتسيلوس رُطَبه وندّه ! أصلي لكم يا أرباب الأولمب عسى أن تلين قلوبكم لي ، فأرى حبيبي وأموت ! !

رجيّة يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمب ! إما أن أقضي فأستريح من هذا الكمد الممض ، والبثّ المؤلم ، وإما أن تأذنوا فيعود برتسيلوس ، فأراه وأموت !

أتمنى عليكم أن يعود فأكلمه ... أملأ أذني وقلبي من موسيقاه ! أناديه باسمه وينادي باسمي ! يعانقني وأعانقه ! يرى الى عبراتي وأنظر الى عبراته ! يبتسم لي في رضاه وفرحه ، وأبتسم له في انكساري ولوعتي !

إئذنوا يا أرباب الأولمب ، فأنا ما أفتأ أصلي لكم ، وأتوسل إليكم بدمه الزكي ، وروحه الأبي ، وقلبه الكبير !

إرحموا ذلي ، ورقوا لهواني ، وارثوا لحالي ! . . . . »

* * *

وصيّرت بنواحيها إشراق الصباح ظُلمةً من الحزن لا أول لها ولا آخر ؛ وأرسلت في الليل البهيم أنّاتها المؤلمة ، وزفراتها الحارة ؛ ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة ، حتى ارتجفت قواعد الأولمب ، واهتزت عروشه الذهبية ، وانعقدت بينه وبين لاؤوداميا قنطرة من الحزن ، عبرت عليها بركات الآلهة الى فؤادها المكلوم ، فمسحت عبراتها ، وهدأت من روعها ، وبشرتها بعودة برتسيلوس !

وفي هدأة ليلة مقمرة ، سكن هواؤها وصدح بلبلها ، وأنشد البدر لحنه الصافي على أراده الفضية ليغمرها بهاءً وروعة ، خرجت لاؤوداميا المحزونة من قصرها المنيف ، لتلاقي روح برتسيلوس يهديه هرمز الكريم بين يديه ، حتى يكون تلقاء زوجه ، فترتمي بين ذراعيه !

ويغرقان في طوفان من القبل !

ويغرقان في لجة من العبرات !

ويقص عليها برتسيلوس أنباء مقتله ... فتبكي ... وتبكي ... وتعاتبه لاؤوداميا ... وتعذله ... ولكن الساعات الثلاث التي سمحت بها الآلهة للقائهما تمر كاللمح ... فينبههما هرمز الى انقضائها ... وماتكاد تسمع نذير هرمز ، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه الى هيدز ، فيظل فيها الى الأبد ، حتى تصعق مكانها ، وتخر مغشياً عليها ... وتموت !

فوا رحمتاً للزوجين السعيدين

(لها بقية) دريني خشبة

مصلحة الطرق والكباري

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة مدير عام مصلحة الطرق والكباري بوزارة المواصلات بمصر لغاية ظهر يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ عن توسيع وتغيير السطح العلوي بأرضية من الخرسانة المسلحة للكوبريين الواقعين على مصرف سقارة وجناية البدرشين تحت الطريق الموصل من سقارة للبدرشين بالقرب من البدرشين بمديرية الجيزة

وثمن دفتر الشروط مائتا مليم ومصاريف البريد خمسون مليماً

الباقي على قيد الحياة

للقصصي الفرنسي بلزاك

ترجمة حسن محمد حبشي

حين دقت ساعة مدينة (مندا) الصغيرة مؤذنة بانتصاف الليل، كان ضابط فرنسي شاب متكئاً على حافة سياج طويل يحيط بالقلعة، غارقاً في لجة التفكير العميق، وذلك أمر غير مألوف بالنسبة لما يحيط به، ولكنه كان منصرفاً عن كل ما هو فيه من وقت وليل ومكان إلى التفكير القوي، وكانت سماء أسبانيا الجميلة تمتد في زرقة صافية فوق رأسه، قد رُصِّعَتْ بالنجوم اللألاءة، وضوء القمر الساطع ينير هذا الوادي الجميل الممتد تحت قدميه، وهو يشرف على مدينة (مندا) ويعلوها عالة تدم؛ وكأن الطبيعة قد هيأتها هكذا لتكون في مأمن من رياح الشمال الآتية من هذه الصخرة الكبيرة التي تقوم عليها القلعة، وإذ أدار الضابط رأسه، أبصر البحر يكتنف البلدة بأمواهه الفضية، وكأنه قد استحال إلى قطعة من اللجين الذائب، وكأن القلعة كوكب أو جوهر ضوء وهاج، وكان وهو في مكانه، يسمع صدى رنات الموسيقى، وعربدة الضباط في الحفلة الراقصة، وقد اختلط ذلك بهمهمة الأمواج الآتية من بُعد، وكأن نسيم البحر والليل جددا نشاطه المنهوك، زد على ذلك ما حوله من حدائق فيحاء، وزهور عطرية الشذا، نفاحة الأريج، فكأنه منموس في حمام من العطر الزكي

وكانت قلعة (مندا) في حوزة شريف إسباني، اتخذها وأسرته دار إقامة، وكانت ابنته الكبرى (كلارا) الجميلة ترمق الضابط الفرنسي الشاب بنظرات مبهمة، وإن كانت تنم عن حزن عميق

وكانت كلارا هذه فتاة رائعة الحسن، فوقع جمالها في قلب الضابط الفرنسي موقع الماء من ذي الغلة الصادي، فوقف واجماً يفكر في هذا الجمال، وبالرغم من أن ثروة أبيها كانت طائلة، وموزعة بينها وبين إخوتها الثلاثة وأختيها، فقد رأى فكتور مارشاند (الضابط) أن فيها الكفاية لأن تكون الدوطة كبيرة، ولكن كيف يتسنى له أن يخطب يد (كلارا) ابنة الشريف الاسباني، وهو ابن تاجر صغير في باريس، أضف إلى ذلك ما بين الأسبان والفرنسيين من إحن؟

وكان الجنرال (ج) قد علم من مصدر سري أن المركيز يحاول أن يوقد مشعل الثورة لنصرة فردناند السابع، ولذا أرسل مرشاند ليعسكر في مدينة (مندا) حتى يكون على علم تام بما ينويه الثوار، ولكي يخمد أي حركة يقومون بها ضد الفرنسيين، وفي ذلك الوقت وصلت إشارة بأن المركيز يتصل سراً بالادارة الانكليزية في لندن، وليس من البعيد أن يرسل الانكليز مدداً؛ ومما حير لب فكتور مارشاند أن المركيز قد استقبله وعائلته استقبالاً لا يدل إلا على منتهى الهدوء؛ ووقع بين أمرين، إذ كيف يوفق بين هذا الهدوء الذي يتجلى في المركيز وأعماله، وبين إشارة الجنرال من وجود مفاوضات سرية؟ ولكن سرعان ما تلاشت هذه الخواطر من ذاكرته، حينما مد بصره إلى الأمام، فأبصر عدة مصابيح مضاءة في المدينة، مع أنه أصدر أمره، بأن تطفأ الأنوار كلها في ساعة معينة، على رغم أن الليلة ليلة عيد ميلاد القديس سنت جون، ولم يسمح بالانارة إلا للقصر فحسب، ومما أحال الشك يقيناً عنده، وبأن هناك يداً تعمل في الخفاء أن رأى ساريات عدة مراكب وسط مياه البحر، تحت أضواء القمر الفضية. وبينما هو سابح في تيار التفكير العميق إذ سمع وقع أقدام خلفه، ولما تبينها وجد أحد رجاله يلهث، وحين رآه قال له:

ـ أهو أنت يا سيدي الضابط؟

ـ نعم هو أنا... ماذا تريد؟

ـ إن هؤلاء الوحوش يزحفون زحف الديدان

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد رأيت رجلاً يخرج من القصر وفي يده مصباح مضاء، وهذا مما أثار الشك في نفسي، وبعثني على أن أقتفي آثاره، وأظل قريباً منه جهد ما أمكنني؛ أجل! قد يكون مسيحياً محافظاً على التقاليد، غير أن الحالة التي هو فيها، ومخالفة أمرك، كل ذلك مما يجعل الشك يحوك في نفسي. وثم أمر آخر يا سيدي الضابط، ذلك أني اكتشفت على قيد خطوات منك، عرمة من الحطب

ولم يكد الجندى يصل إلى هذا الحد من الكلام حتى دوت فى المكان صرخة صدعت السكون العميق ، وانفجرت قنبلة أودت شظية منها بالجندى لساعته ، واندلع لهيب النيران على بعد عشر خطوات فحسب ، من الضابط الذى أسقط فى يده ، وتبين له أن فى الأمر دسيسة ، وأن الثوار قد تأهبوا للفتك بالأعداء ، واضطرب فى مكانه ، إذ لم يكن معه حسامه ؛ وها هو ذا يرى رجاله وقد تردوا فى ساحة المدينة ، وصمتت الموسيقى ، وتلاشت ضحكات الضباط ، ومر على مخيلته ما سيلاقيه — إذا هو ظل حياً — من محاكمة وإهانة ، فلم يجد أمامه من وسيلة للنجاة إلا أن يلقى بنفسه فى سفح هذا الوادى ، حيث يتحطم جسمه على صخوره الجاثمة هناك :

وإذ كان على أهبة تنفيذ ما اعتزم ، أحس يداً أعاقته عما هو قادم عليه ، فالتفت إلى صاحبها ، فاذا به (كلارا) تهيب به ، أن أسرع فان إخوتى على آثارى قادمون .... للفتك ... بك ؛ وامض إلى الصخرة القائمة عند سفح التل ، وستجد حصان أخى (جوانيتو) فامتطه ولا تتريث لحظة ، وإلا فقدت حياتك

فحدق الفتى فيها دقيقة ، وقد قاضت نفسه بالدهشة ، ولكنه تنبه أخيراً ، إذ ثارت فى نفسه غريزة حب الحياة ، تلك الغريزة التى تتمثل فى الجميع على السواء ، فى حيوان أو إنسان ، وحمل اليه الريح صدى صوت (كلارا) تهيب بأخوتها ، ألا يتريثوا فى اقتفاء آثاره ، كما سمع وقع حوافر دوابهم تسابق الريح ، وهم على صهواتها يرسلون عليه وابلاً من الرصاص الذى كان يمر بجانب رأسه ، ولم يتمهل هو الآخر لحظة فى الطريق بل أسرع بالجواد ، وبعد بضع ساعات كان فى حضرة الجنرال ، وكان فى ثلة من إخوانه يتناولون طعامهم ، فارتمى أمامه قائلاً :

— « مولاى . إن حياتى بين يديك ، افعل بها ما تشاء ؟ »

ثم أخذ يقص على الجنرال قصته ، فاذا الجميع ينصتون اليه وكأن على رءوسهم الطير ، على وجوههم غبرة ، ترهقها قترة ، وألجم الخبر أفواههم ، وجعلهم آذاناً فحسب ، فلما أتمها قال له القائد العام:

— « ياهذا إنى أراك سيئ الحظ ، أكثر من أن تكون مذنباً ، لا تثريب عليك ، وإنى لأرى ساحتك ، إلا إذا رأى المرشال غير هذا »

فسأله الضابط : « وإذا سمع الامبراطور بالحادثة ؟ ؟ »

فأجابه الجنرال : « سيكون القتل نصيبك ، ولكن دعنا الآن من هذا ، وهيا ندبر خطة ننتقم بها من هؤلاء الأوغاد ، أوشاب الانسانية ، لابد أن يكون الثأر شديداً ، حتى تخمد فى نفوسهم الوحشية والدناءة »

وفى ساعة من الزمن ، شدت فرقة من الجند رحالها ، على رأسها الجنرال ، بصحبة الضابط فكتور ، وإذ علم الجنود بمصير زملائهم الذين أخذوا على غرة ، ثارت فى عروقهم دماء الانتقام واستحالوا شعلة تتأجج لحرق الاسبان ، وأقسموا أن ينتقموا لاخوانهم أشد انتقام ، وسرعان ماقطعوا المسافة بين مدينة منذا ، وبين مركز القيادة العليا

ورأى الاسبان أنفسهم محاصرين ، وعلموا أن الجنرال لايتردد لحظة فى الفتك بأهل المدينة ، لا تأخذه فى ذلك شفقة ولا رحمة ، فبعثوا اليه رسل المهادنة ، ورضى هو أن يسلم كل من فى القصر أنفسهم اليه ، من أحقر الخدم الى المركيز نفسه ، واتخذ القصر مركزاً للقيادة ؛ وأمر بكل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة ، وخدمها أن يقيد ، ونكل بالثوار أشد تنكيل ، ولم يرحم رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ، بل ثارت فيه غريزته الوحشية ، وبينما هو فى مجلس من رجاله إذ أقبل عليه فكتور مارشاند ، وقال له :

— أسألك يا مولاى أن تجيب لى طلباً ، هو أن المركيز يرجوك أن تفرق بين الأشراف والعامة ، وذلك بأن تطيح رقابهم بيد الجلاد لا بالمشنقة ، وأن تفك قيودهم التى كبلوا بها ، ولن يحاولوا الهرب ، وذلك عهد قد قطعوه على أنفسهم ، وإنه ليتخلى لك عن جميع أملاكه وأمواله إذا عفوت عن أحد أبنائه ووهبته الحياة

فقال الجنرال : إن أمواله قد أصبحت تبعاً للملك جوزيف ، ولكنى سأهبه ما طلب ، وإن كنت أعرف علة رجائه ، فى أن يبقى اسم الأسرة ، ببقاء أحد أفرادها ؛ سأهبه ذلك ، لمن يرضى أن يكون جلادهم ، ويطيح برقابهم ، والآن لا تذكر لى شيئاً منهم ألبتة

* * *

اجتمع الضباط فى الحجرة التالية يتناولون غداءهم ، وكانوا فى نهم شديد إثر ماكابدوه من نصب وتعب ، فأقبلوا على الطعام كالوحوش الضارية قد أنشبت مخالبها فى فريسة دسمة بعد طول سغب ، وتفقدوا الضابط فكتور ، فلم يجدوه بينهم ،

ذلك لأنه مضى إلى الحجرة التي فيها عائلة المركيز وآله أن يرى سادة الأمس مقيدين كالعبيد ، قد ارتسمت على وجوههم دلائل الأسى الشديد ، واللوعة المرة ؛ وأى لوعة أشد على النفس من أن يرى المرء عبدا حقيرا يتحكم فيه وهو السيد الحاكم ؟ وسرت رعشة فى جسد الضابط حين فكر فى هذه الرءوس الجميلة ، وانها ستهوى على أقدام الجلاد مصبوغة بالدماء ، وكأنما هم كانوا يفكرون فى هذا الأمر نفسه ، فقد بعثروا حولهم تنهدات الألم والحزن التى ملأت جو الغرفة ، وإذ أبصروا فكتور يدخل حجرتهم اشرأبت أعناقهم ، طمعاً فى أن يكون حاملا اليهم بشرى العفو ، فأمر الجند أن يفكوا قيود السادة ، ومضى هو بنفسه يحل وثاق (كلارا) فقابلته على صنيعه هذا بابتسامة اغتصبتها اغتصاباً ، ومس فى رفق ذراعها البضة الناعمة ، وأعجبته خصلات شعرها الفاحم ، المتهدل على جبينها الوضاء ، وفتنة قدها المشوق الجميل ، وخصرها الأهيف ، فسألته هل نجح فى مهمته ، فهمهم همهمة حزينة ، وجال ببصره فى وجهها ووجه اخوتها الثلاثة ، وكان (جوانيتو) أكبر الأبناء يبلغ من العمر ثلاثين عاماً ، وأخوه (فيلب) عشرين ربيعاً ، وكان (عمانويل) يبلغ ثمانية أعوام ، ذا أنف رومانى وطلعة جميلة ؛ ثم جمع أطراف شجاعته ، وأخبرها برأى الجنرال ، فسرت رعدة الرهبة فى أوصالها ، ولكنها تشجعت ومضت تخبر أباها بما أمره اليها فكتور ، وزادت عليه قولها : — أبى عليك أن تأمر (جوانيتو) وعليه أن يصدع بأمرك اذا كان مخلصاً لك ، ففى طاعته اياك ، وتلبيته لرغبتك اسعادنا ! فلما سمعت الأم ذلك ، أحست بالأمل يعاودها ، وظنت أن نجاتهم أصبحت قاب قوسين ، وما علمت أن المركيز إذ ذاك يطلب من ولده أمراً ، تنهد له الجبال هدّا ، واذ تبينت حقيقة الأمر والطلب ارتدت الى الوراء ، تعلوها صفرة اليأس ، وعرف جوانيتو السر فثارت دماء الغضب حارة فى عروقه ، وهب ثائراً كالأسد ، قد ألقى نفسه أسير قفص من الحديد ، بعد أن كان بطلا الثرى ، فى زهو الأمير ، ويرى الغابة كلها تكاد تضيق عن خطى أقدامه ، ولكن الأب هدأ كل ذلك ، بأن قال : « جوانيتو »

فكانت إجابة جوانيتو هزة الرفض من رأسه ، وارتمى خائراً على مقعده ، يسمد ناظريه فى أبويه ، وقد تجلت الدهشة والأسى والغضب فى عينيه الحائرتين ، فلما رأت (كلارا) إصرار أخيها على الرفض ، تركت مكانها الى حيث جوانيتو ، وطوقت عنقه بذراعيها الغضتين ، وجثت أمامه وقبلته فى عينيه قائلة :

ـ « أى جوانيتو : يا أعز ما أملك ، آه ! . . . ما ألذ الموت إذا كان من يدك ! . . . إنك لا تدرى حلاوته . . . كما أشعر بها الآن . . . أنقذنى . . يا جوانيتو . . من يدى السفاح . . اللوث اليدين . . . حتى لا يقال . . . إن جلاداً حقيراً . . . أطاح برقاب العائلة الحاكمة . . وأنقذنى من بين براثنه . . وبراثن رجل آخر »

ثم نظرت شزرا الى فكتور ، نظرت اليه نظرة تفيض حقداً وكراهية واحتقاراً ، وكأنها بذلك تثير فى نفس أخيها الحقارة للفرنسيس ، وتشعل الضغينة فى نفسه عليهم ، . . . ثم قال له أخوه فيليب متوسلاً : « كن شجاعاً صنديداً وإلا محوت عائلتنا الشريفة من العالم »

وأمره الأب ، فلم يلب طلبه ، فجثا أمامه ، هو وإخوته جميعاً ورفعوا أكفهم مستوسلين اليه أن يضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، وأن ينقذ اسم العائلة من أن يدنس ، وعرف الأب من أين تؤكل الكتف ، فأهاب به قائلاً : « أى بنىّ . أغادرتك شجاعة الاسبانى ، وإحساسه الشريف ؟ أأجثو أمامك . . . وأتوسل اليك . . . ولا ترد طلبى إلا خائباً ؟ أتفكر فى ألمك فحسب . . ولا تزنه بآلامنا جميعاً . . إذا أصررت على المكابرة » ثم التفت الى زوجته قائلا : أهذا ولدى يا زوجتى ؟

فصاحت به الأم فى يأس : «سيلبى طلبك . . أيها المركيز!!» ولمحت جبين جوانيتو ينعقد أكثر ، وتبينت أنه يألم لها أكثر من الجميع ، وحينذاك كانت الثانية «ماركينا» قد تعلقت بأطراف ذيل أمها ، بقبضتيها الضعيفتين ، وأخذت تذرف الدموع ، فلما شاهدها « فيليب » انتهرها ولامها ، وإذ ذاك دخل الحجرة كاهن المدينة ، فالتفوا حوله كصغار الطير ، ومضوا به الى جوانيتو الصامت ، فلم يستطع مرشاند ، أن يرى هذا المنظر الأليم ، فبارح الغرفة الى حيث اجتمع الجنرال مع بعض قواده يجرعون الخمر ، وقد أصدر أمره باحضار فرقة من الجند تذب الناس عن أن يقربوا من جثث الخدم المشنوقين ، عدلاة أمام أعين السابلة ، ووقف الجلاد بهيئته المفزعة ليحل مكان جوانيتو إذا خانته شجاعته ، ولم يستطع أن يقوم بتنفيذ

ما عهد اليــه ، وصدع هذا الـكون الضارب أطنابه على المـكان وقع أقدام عائلة المركيز ، يحيط بهم الجند مشهرين سيوفهم ، يلمع فى ظباها الردى ، ولم تفارق الهيبـــة أفراد الأسرة ، وكانوا يتقدمون الى حيث النطع ممـدود فى خطوات هادئة ، لا أثر للخوف أو الاضطراب فيهـا ، غير أن أحدهم قد علتـه صفرة الأموات ، متـكئاً على ذراع الـكاهن الذى أخذ يهدئ روعه المضطرب ، بترانيم دينية ، فعرف الجميع حينئذ أن (جوانيتو) سيقوم بمهمّـةِ الجلاد فى اطاحة الرقاب ، وجثا الجميع قريبين من القصلة ، وأى مشهد آلم للنفس من أن ترى عزيز قوم ذل ؟ لقد كان المركيز وزوجته وابنتاه ، وولداه ، أمام جوانيتو ، الذى أسر اليه الجلاد بعض الـكلمات

* * *

حينذاك اقتربت (كلارا) من أخيها ، وصاحت به : جوانيتو ، ابدأ بى إذا أردت أن ترفق ... بشجاعتى المنهوكة ... هيا .. أطح رأسى أولاً ! !

وساعتئذ أبصر الناسُ الضابطَ (فيكتور مارشاند) مسـرعا نحو (كلارا) التى جثت على ركبتيها تتأهب للأمر الواقع ، وتستعد لأن يطاح رأسها ، فلما حاذاها تماماً قال لها فى أذنها : « إن الجنرال ليعفو عنك ويهبك الحياة إذا رضيت بى زوجا ! »

فصوبت اليه نظرة ملؤها الـكبرياء بنفسها ، والازدراء له ، ثم صاحت بأخيها ، كأنها اللبؤة الضارية : «هيا ، ياجوانيتو . . فانى . . . على أتم الاستعداد . . . . » وإذ ذاك أبصر الناس رأسها الجميل يتـدحرج تحت قدمى أخيها ، وقد انفصل عن جسدها ، وسرت الرعشة فى جسد أمها ، ولـكنها ملـكت عواطفها ، وتقدم أخوه عمانويل وسأله : « أترانى فى مكانى تماماً . . أيها العزيز جوانيتو ؟ »

ثم أقبلت اليه أخته الصغيرة (ماركينا) والدموع تنهمر من عينيها ، فسألها : « أتبكين يا أختاه ؟ »

فقالت : نعم يا حبيبى جوانيتو ، إنى أبكى من أجلك . . . . اشد ما يؤلمنى أن تظل وحيداً حين تفقدنا جميعاً فلا تجدنا معك »

ولـكنه رفع السيف وأهوى به على رقبة الصغيرة ، وإذ ذاك تقدم منه أبوه المركيز ، فصوب ناظريه ، وصعدها ، فى دماء أبنائه الجارية تحت قدميه ، كأنها المياه المتدفقة شاهدة على ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ثم التفت ناحية الجماهير الذين عقدت الدهشة ألسنتهم ، فـكانوا أصناماً لاتتكلم ، أو تتحرك تأثرا من هذا المشهد المروّع ، ثم مد يده الى جوانيتو ، وصاح فى صوت قوى النبرات حادها ، وقال :

« أيها الاسبانيون ! إنى أبارك ولدى ، وأهبه دعوات الأبوة والآن هيا أيها المركيز . أطح رأسى ، ولا يأخذك الخوف أو الرعب ، هيّـا . لا تثريب عليك »

فلبى نداء أبيه صامتاً حزيناً ، وإذ ذاك أقبلت أمّـه ، منهوكة القوى ، خائرة الأوصال ، كيف لا وقد رأت أبناءها جميعاً ، وزوجها المركيز ، تطاح رقابهم ، كأنهم الماشية بل أحقر ، ذلك قلب الأم الذى :

لا ربة النســيان ترحم حزنه وترى بكاه
كلا ولا الأيام تبلى فى أناملها أساه
إلاّ إذا ضفرت له الأقدار اكليل الجنون
وغدا شـقياً ضاحكاً تلهو بمرآه السـنون

أقبلت أمه متكئة على ذراع الـكاهن ، ونظرت إليـه نظرة الوداع ممزوجة بأحرّ الألم ، فما رآها حتى تنبهت حواسه الخامدة وثار غاضباً ، وقال :

— « إن ثدييها هذين قد أرضعانى صغيراً »

فانتفض الجميع ، حين سماعهم هذا ، وانتزعت تلك الـكلمات صرخة الفزع من قلوبهم جميعاً ، وسكنت ضحكات الضبـاط ، وعرفت المركيزة وقتئذ أن شجاعة جوانيتو ولّت ، ولم يعـد ذلك القوى ، فجمعت ما تبقى من شجاعتها المبعثرة ، ثم قفزت من فوق قمة المنحدر فهوت إلى القاع ، وقد مزقتها الصخور الجاثمة فى أســـفله شر ممزق ، فهتف الجمهور الشاهد هتاف الاعجاب ، أما جوانيتو فقد رفد مستجى مغمى عليـه ، فحملوه إلى الخارج حيث عاش وقد أسموه (El Verdugo) (الجـلاد)

حسن محمد حبشي

التنويم المغنطيسى ١٠ صـ
٢٠٠ صحيفة بالصور - كتاب علمى عملى
قراءة الأفكار وعلوم نفسية ٥ صـ
ملكات العقل الباطن ٥ صـ
موجز التنويم بالصور ١ صـ
للأستاذ دليم سرجيوس المحامى بمصر
شارع الترعة البولاقية رقم ١٥٦ بالبتية